

## شعر النقد الاجتماعي في العصر المملوكي

الباحثة. بريناز ميرزا محمد نام الباحث. علي باقري

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة طهران/ إيران

Poetry of Social Criticism in the Memlooki Era

Researcher. Berinaz Merza Mohammad Nam

Researcher. Ali Baqiri

Department of Arabic / Tehran University / Iran

lateracher@gmail.com

## Abstract

The relationship between literature and society is deep so it is noticeable that poets of different eras are influenced by their environment negatively and positively in various ratios. In the Memlooki era, poets derived their poetic images from their real society in addition to their critical and sarcastic spirits.

**Key words:** literature, society, social criticism, Memlooki era.

## الملخص

إنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة ولهذا نرى أنّ الشعراء في كلّ عصر من العصور يتأثرون بالبيئة التي يعيشون فيها سلباً وإيجاباً ويكون مقدار ذلك التأثير مختلفاً ما بين شاعر وآخر. ارتبط الشعر في العصر المملوكي بالمجتمع ارتباطاً قوياً، حيث كان الشعراء يستمدون الكثير من صورهم الشعرية من واقع مجتمعهم ومن مجريات أحداثه، مضيفين إليه الكثير من روحهم النقدية والهجائية و لا عجب فالشاعر مرآة عصره.

درس الباحث في هذا البحث محاور النقد الاجتماعي الثلاثة عند شعراء العصر المملوكي وهي: النقد الذاتي، فقد نقد الشعراء أنفسهم وأسرههم وأزواجهم. والنقد السياسي إذ نقد الشعراء الملوك وأصحاب الشرطة، والموظفين. والنقد الديني، حيث نقد الشعراء بعض القضاة والفقهاء، والمتصوفة و أهل الذمة وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي. خلص إلى أنّ شعر النقد الاجتماعي عند شعراء العصر المملوكي كان سجلاً تاريخياً لحياة المجتمع الإسلامي في عصرهم وسلاح كثير منهم في مقاومة الظلم والجور، لذلك فإنّه يعدّ مظهراً من مظاهر المقاومة الشعبية والتمرد على الظلم.

**الكلمات المفتاحية:** الأدب، المجتمع، النقد الاجتماعي، العصر المملوكي.

## المقدمة:

إنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة ولا يتولد فن عموماً ولا أدب خصوصاً إلا في الجماعة. و لا يُنكر أنّ لكلّ شاعر طابعاً خاصاً يميز شعره عن سواه وأنّ لشخصية الأديب وحياته النفسية دوراً بارزاً في مواقفه الأدبية. لكن الأديباء والفنانين هم أبناء بيئتهم منها ينهلون ويتناولون ويغرفون وفيها يشع انتاجهم ويتدفق إبداعهم وإليها يلتفتون فلا أدب ولا فن إلا في الجماعة ومن أجل الجماعة ولا يمكن الغوص في أعماق الأدب إلا داخل الإطار الاجتماعي الذي منه ينطلق الأدب وإليه يلتفت.

يتأثر الشاعر بالبيئة التي يعيش فيها؛ سلباً وإيجاباً ويكون مقدار ذلك التأثير مختلفاً ما بين شاعر وآخر، ومن يطلع على سيرة عدد من شعراء العربية القدامى، والمحدثين على حدّ سواء يجد أنّ كثيرين منهم اهتموا بقضايا مجتمعاتهم وتنبهوا إلى المسؤولية التي يتحملونها في معالجة تلك القضايا، وفق رؤية واضحة بحيث يؤثر في مجتمعه ويعمل على إصلاحه. وهذا يؤكد أنّ علاقة التأثير والتأثير متبادلة بين الشاعر ومجتمعه، فالشاعر « بمجرد أن يمسك القلم يفكر فيمن سيقروونه، ويحاول دائماً أن يتطابق معهم ويعي مجتمعهم وعياً كاملاً، بكلّ قضاياها، وأحداثه، ومشاكله، لسبب بسيط هو أنّه اجتماعي بطبعه.» (ضيف، بلا تاريخ: ١٩١)

وقد عالج عدد من الشعراء الجاهليين قضايا مجتمعهم وكانوا لسان حال قومهم في كشف المحاسن والعيوب، فيما انحسرت المعالجات في العصور اللاحقة وتحول الشعر إلى وسيلة تكسب، أو تنازع حزبي، أو شعوبي، لكن من يطالع شعر شعراء العصر المملوكي يجد فيه قدرًا « لأبأس به من الوعي السياسي، والأخلاقي، والإجتماعي، تمثل بمواقف عدد كبير من الشعراء والكتّاب تحسّسوا مواضع الخلل في مجتمعهم، فرصدوها وتصدّوا لها، كلٌّ من زاويته ودرجة إحساسه بالمسئولية. » (الأيوبي، ١٤١٥: ٢٣٨)

« توقف الشعراء في العصر المملوكي أمام الظواهر الإجتماعية والسياسة. فعرضوا لمعالمها السلبية والإيجابية. فعبأوا الأولى وامتدحوا الثانية. بعضهم اكتفى بتصوير المعالم وإبداء الأسف، وبعضهم الآخر رفع الصوت واحتجّ، نغم وذمّ وسخر ونقد نقدًا لاذعًا... وقسم آخر عرض لنوازع نفسه ومارس النقد الذاتي وهكذا تنوعت المواقف والمواضيع. فكان لنا شعراً كثير في النقد الإجتماعي و السياسي، إن لم يؤد إلى تقويم الإعوجاج وتصويب المسار العام فقد نكأ الجراح و أثار المشاعر وأيقظ طاقات الوعي وسجّل نقاط اعتراض وبرأ العصر من وصمة الصمت والتجاهل أو التعامي كما يحلو لبعضهم نعتة وتقويمه. » (المصدر نفسه، ٢٤٠)

قبل البدء بالدراسة، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ النقد الإجتماعي يختلف عن الهجاء في قضايا ويتشابه معه في أخرى ومن الصعب الفصل بينهما فصلاً قاطعاً جازماً، حتّى اختلف الدارسون المحدثون في تحديد علاقتهما ببعضهما البعض، فبكري شيخ أمين رأى أنّ الشعراء في العصر المملوكي لم يقولوا في مظالم مجتمعهم بل قالوا في هجاء زوجاتهم وغلماهم وغيرها، مما اسماه تفاهات. (أمين، ١٣٩٩: ١٤٤)

بينما قال في موضع آخر قال: « لقد تحدّث شعراء هذه العصور عن المفاصد الإجتماعية والأخلاقية والسياسية، وشكوا من الخداع والتضليل والتدجيل وارتفاع الأسعار... بأسلوب فيه كثير من النقية وشيء من السخرية المبطنّة والمرارة والألم الواضحين. » (المصدر نفسه، ١٤٦-١٤٧)

وذلك يدلّ على أنّه لم يميز بين الهجاء، والنقد الإجتماعي. كما عدّ محمد كامل الفقي ردّ البوصيري على النصارى واليهود في ادعاءاتهم ونقاشه لهم وإقامة الحجّة عليهم نوعاً من الهجاء. (الفقي، ١٩٧٦: ١٣٦-١٣٧) وأما محمد زغلول سلام فرأى أن الهجاء اتخذ في العصر المملوكي وسيلة للنقد الإجتماعي. (سلام، بلا تاريخ: ٣/٣٨) ومحمد نوري الهيب تحدّث عن النقد الإجتماعي وعرفه فقال: « إنّه نوعٌ إيجابي من الهجاء، تجاوز حدود الفردية الضيقة ليتناول ما يراه مثالب ذات آثار سلبية على المجتمع سواء أكانت صادرة عن الفرد، أم عن المجتمع ويسلّط عليها أضواء النقد والتجريح، رافعاً بذلك صوته، لعله يجد أدنا ضاغياً تستجيب. وإذا لم يجد فحسبه أنه قال كلمة الحق وألقى من فوق كاهلة تبعة السكوت عنها، وعبرَ عما في نفسه من ألم وغضب، ووجد بعد ذلك بعض الراحة ممّا يعانيه. (الهيب، ١٤٠٦: ١٦٤-١٦٥) و رأى خالد يوسف أن النقد والسخرية والإعتراض سواء أكان موضوع العاطفة الفرد أم الجماعة هو جزء من الهجاء. (يوسف، ٢٠٠٣: ٤٧٢) و رأى أحمد بدوي في الهجاء نظرات نقدية لبعض أحوال المجتمع، تناولها بعض شعراء عصر الحروب الصليبية في لهجة ساخرة. » (بدوي، ١٩٧٩: ٨١) وقال: « وهكذا نجد في هذا الهجاء نقداً وانعكاسات لما كان في المجتمع من قوانين و عادات وتقاليده. » (المصدر نفسه، ٨٣) ثم علّق على هذا النقد فعده خير ألوان الهجاء، « وخير ألوان الهجاء في ذلك العصر ما كان على سبيل التّهكم والسخرية. » (المصدر نفسه) على أنّي أرى أن النقد الإجتماعي يمتاز عن الهجاء بأنه يهدف إلى الإصلاح، ورفع الظلم، ووأد العادات والسلوكات السيئة في المجتمعات، وهو قد يلامس الهجاء لكنه لا يبلغ مبلغه من الشتم والسبّ والحطّ من المكانة. وهدف ملامسته بعض معاني الهجاء هو أيضاً تحقيق ما سبق و الحثّ عليه. وقد اعتمد الباحث في دراسته شعر النقد الإجتماعي في العصر المملوكي المنهج الوصفي التحليلي وتستهدف هذه المقالة الإجابة على الأسئلة التالية:

١. ما أهمّ الأسباب التي دفعت الشعراء في العصر المملوكي إلى شعر النقد الإجتماعي؟
٢. ما هي الموضوعات التي تطرّق إليها الشعراء في النقد الإجتماعي في هذا العصر؟
٣. من هم الشعراء الذين اهتموا بشعر النقد الإجتماعي في هذا العصر؟

## دراسة الموضوع:

المجتمع المملوكي كان يعجّ بالتناقضات الإجتماعية والسياسية. فانتسم بالاضطراب وعدم الاستقرار. وذلك جراء صراع المماليك فيما بينهم على السلطة والصراع الخارجي مع الفرنجة والمغول. وهذا كان يؤدي إلى فرض مزيد من الضرائب على عامة الناس وانتشار الفساد، وسوء الأخلاق وبعض الرذائل بين الناس من مثل: الرشوة، والسرقة، والخيانة، والاعتداء على حقوق الآخرين، وغيرها. وقد عاش الشعراء في هذا المجتمع، فلم يقبل بعضهم أن يكونوا مثل العوام، بل رفعوا صوتهم محتجين، أو منكرين، أو ساخرين، وهازئين أو محرّضين هؤلاء السلاطين، أو الأمراء على معاقبة المفسدين وإصلاح الأوضاع. الأسباب التي دفعت الشعراء إلى شعر النقد الإجتماعي كثيرة، ومنها ما هو الأهم وهو المدفوع من البيئة الإجتماعية والسياسية ومنها ما كان لأغراض دينية عقائدية. كان شعر النقد الإجتماعي سلاح كثير من الشعراء في مقاومة الظلم والجور، لذلك فإنه يعدّ مظهرًا من المقاومة الشعبية والتّمرد على الظلم. اتخذ الشعراء شعر النقد الإجتماعي وسيلةً من وسائل الشكاية ومظهرًا من مظاهرها، حيث كانوا من خلاله يصوّرون فقرهم وضيق حالهم وجعلوا من خلالها يلفتون الأنظار إلى حالهم وأوضاعهم الإجتماعية والمادية. وقد جاء شعر النقد الإجتماعي في العصر المملوكي موزعاً على المظاهر الآتية:

## ١- النقد الذاتي:

في هذا النوع من النقد ينقد الشاعر نفسه، أسرته، زوجته... من كبار شعراء العصر المملوكي الذين شرفوا عصرهم بهم و أعلوا كلمة الحقّ فيه، الإمام شرف الدين البوصيري. نشأ البوصيري في أسرة فقيرة و سعى إلى مساعدة أسرته وهو صغير السن، فعمل في كتابة الألواح التي توضع شواهد على القبور، ثم اتصل ببعض الأمراء والوزراء، وأهل الحكم في مصر فمدحهم ونال عطاياهم. ويبدو أنّ أحدهم عرض عليه أن يتولّى وظيفة المحتسب بالقاهرة والتي كان يمكن أن تدّر عليه اموالاً كثيرةً و أن ترفعه إلى فئة إجتماعية راقية لكنه رفض تولى هذه الوظيفة المهمة فقال من قصيدة طويلة: (البوصيري، ١٣٩٣: ٩٩)

لَا تَظْلِمُ نَوْنِي وَتَظْلِمُوا الْحِسَابَةَ      فَأَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا نِسَابَةَ

غَيْرِي فِي الْبَيْعِ وَالشُّرَا دَرِبُ      وَلَيْسَ فِي الْحَالَتَيْنِ لِي دُرِبُ

فهو لا يريد هذه الوظيفة لأنه لا يصلح لها، وهي لا تصلح له. لكنه حرص على المحافظة على مهنته التي يُتقنها وهي الكتابة، والحساب والشعر، فقال: (المصدر نفسه، ١٠١)

إِنِّي امْرُؤٌ حِرْفَتِي الْحِسَابُ فَلَا      يَدْخُلُ رَيْبٌ عَلَيَّ فِي حِسَابَةِ

فَلَأْتُ رَدُّ الْكِتَابِ جَانِزَةً      عَلَى حِسَابِ مَنِّي وَلَا شَطْبَةَ

يَشْرَقُ مِنِّي بِرَيْقِهِ رَجُلٌ      يَشْرَبُ مَالُ الْعَمَالِ فِي شَرِبَةِ

وَالشُّعْرُ مِيزَانُهُ أَقْوَمُهُ      وَلَيْسَ تَنْقَامُ مِنْهُ لِي حَدَبُهُ

فَأِنِّي لِأَرَى الْمَدِيحَ بِهِ      لِلْمَالِ بَلِّ لِلْوَدَادِ وَالصُّحْبَةَ

وَالشُّعْرُ عِنْدِي أَخُو الْعَدَالَةِ لِأَحْ      سِبُّ أَقْوَالِهِ وَلَا كَسَابَةَ

يبدو أن سبب رفضه هذه الوظيفة المهمة كان عدم حبّه لهذه المهنة التي صوّر فيها ما يقوم به المحتسب من دعمال لايرغبها، فضلاً عن كونها أعمالاً مرهفة. كما أنه تجنّب بهذا الرفض شروراً من كان ينافس على الوظيفة وهو الفخر الغيشي (المصدر نفسه، ١١-١٢)

يرى زين العابدين ابن الوردى أنّ التكسب بالشعر عمل غير مقبول لأن التكسب بالشعر يجعل المتكسب عبداً و يحطّ من قدره وقدر أشعاره. ويبدو أنّ ابن الوردى كان قد عرض عليه منصب القضاء، فرفضه، فتعجّب الناس من رفضه. فبين لهم أنهم أن العلم أعلى رتبةً من القضاء وإنه يعفّ عن هذا المنصب لتبعاته المهينة الأليمة. يقول: (ابن الوردى، ١٤٠٧: ٢٩٧ و انظر، ٣٧، ٣١٤، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٩٤، ٣٩٥)

وَأَرْفُضُهُ عَمداً وَمَا أَنَا مُضْطَرُّ

تَعَجَّبَ قَوْمٌ كَيْفَ أَتَزَكُّ مَنْصَبِي

وَفَارَقَهَا حَتَّى يُوَارِيَهُ النَّوْرِي

وَقَالُوا: مَنْ حَلَّ فِي رُتْبَةِ الْقَضَا

إِلَّا قَلَعَلَّ الْعُتْرَ يَتَّبِعُهُ الْيُسْر

وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِالْقَضَاءِ وَعُسْرِهِ

وَلَكِنْ تَشَقَّى حَاسِدِيهِ بِهِ مُرّاً

طِبَاعٌ عَفِيفٌ لَا يَرَى حُبَّ مَنْصَبٍ

وَهِيَّاتِ خَوْفِ الْفَقْرِ عِنْدَ الْغِنَى قَقْرُ

قَنِعَتْ فَخِلَتْ التَّجَمُّ دُونِي رُتْبَةً

إنّ رفض هؤلاء العلماء وغيرهم منصب القضاء مرده خشيتهم تبعاته، كأن تفرض عليهم الأحكام، أو أن يزيغوا عن الحق ولعل شرط بعضهم ألا يأخذ أجراً على منصب القضاء كان سببه ذلك كي لا تكون رقابهم مرهونة بهذا الأجر والراتب عند سلاطين المماليك.

تتوّعت شكاوى الشعراء في العصر المملوكي بين توجّع وتذمّر ونفور (الأيوبي، ١٤١٥: ٣٠٧) ولعل أول ما يلاحظ عندهم هو الشكوى الدائمة من جور الزمان، ومن سوء الحظ، حيث حكم عليهم بالفقر والغارة والفاقة. (محمد، ١٩٩٣: ٢٢٤) فمنهم من رزخ تحت إقبال الفقر والعوز، وضافت به الدنيا. انطلاقاً من حجرته الضيقة وثيابه الرثة، وطعامه النادر مما جعله عنوان زمانه في عسر الحال وشدة الهزل وتقلب الأيام. (الأيوبي، ١٤١٥: ٣٠٧)

ولعلّ من أوّل الشعراء الذين تجدر الإشارة إليهم، أبا الحسن الجزار الذي بالغ في وصف فقره وشكوى حاله وفاقته، حتّى انقلب عنده الأمير إلى سخرية ومن ذلك صوره الطريفة المضحكة التي قالها في وصف داره الخرية حيث قال: (الحموي، بلا تاريخ: ٢٥١) ودارٍ خرابٍ بها قد نزلتْ

مَحْجُتْهَا لِلرُّورِي شَاسِغَةٌ

طَرِيقٌ مِّنَ الطُّرُقِ مَسْلُوكَةٌ

بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعَةِ

فَلَا فَرَقَ مَا بَيْنَ أَنِّي أَكُونُ

فَقُصِّغِي بِبِلَا أُنِّ سَامِعَةٌ

تُسَاوِرُهَا هَفَاوَاتُ النَّسِيمِ

وأخشى بها أن أقيم الصلاة  
فَنَسَّ جُدَّ حِطَانُهَا الرَّكْعَةَ  
إذا ما قرأت إذا زلزلت  
خَشِيْتُ بِأَنْ تَقْرَأَ الْوَاقِعَةَ

في البيت الأول يجعل الشاعر داره الخربة لا على الأرض وإنما في قاعها، في سابع الأرض ويجعلها في البيت الثاني محبة للناس الأمر الذي يجعلها بمثابة القارعة كما يقول في البيت الثالث. حتى أنه لشدة خرابها يخشى الإقامة الصلاة فيها فتسجد حيطانها الراكعة، ويخاف من قراءة سورة «الزلزلة» فيها خشية قرائتها «الواقعة».

والبوصيري على الرغم من أنه كان يعمل في وظائف عدة إلا أن وضعه الإقتصادي لم يتحسن وبخاصة أنه كان كثير الأولاد. وقد صور فقره بصورة فكاهية ظريفة، فاستغاث بعدد من الأمراء والوزراء الذين مدحهم، لعلمهم يستطيعون مساعدته في التغلب على قسوة الحياة، وسد احتياجات عياله المالية، قال في قصيدة مدح بها علي بن الصاحبى: (البوصيري، ١٣٩٣: ١٣٣)

أَيْهَا الصَّاحِبُ الْمُؤَمَّلُ أَدْعُو  
كَ دُعَاءَ اسْتِغَاثَةٍ وَاسْتِجَارَةٍ

أَتَقَلَّبْتُ ظَهْرِي الْعِيَالُ وَقَدْ كُنْتُ  
بِتْ زَمَانًا بِهِمْ خَفِيفَ الْكَارَةِ

ولو أنني وحدي لكنت مريداً  
في رباطٍ أو عابداً في مغارة

ولا تكنني إلى سواك فأخيا  
رُ زَمَانِي لَا يَمْنَحُونِ خِيَارَةَ

إنه يعلق على ممدوحه، فيستغيث به ويستجير لكي يساعده في توفير مونة عياله، فيخفف عنه ثقلهم، مؤكداً تمسكه بأسرته، وحرصه على إعالتها ورعايتها ومشيراً إلى أنه يعتبر ذلك عبادة، لا بل فضل إعالتهم على الإنقطاع في رباط، أو مغارة مع المتصوفة للعبادة. ثم يحثه على عدم إحالته إلى غيره من خيار أهل الزمان فهم لا يعطونه حتى الخيارة على قلة قيمتها وعدم فائدتها لعياله الكثر. وفي قصيدة أخرى مدح بها الوزير بهاء الدين بن حنا، عرض حال أسرته وفقره وكثرة اولاده، وفضل أحوالهم، ثم يبين أن عمله لا يكفيه لسد متطلبات أسرته، حتى أن أبناءه سألوه إن كان يخدم الناس من دون أجرٍ و قال: (المصدر نفسه، ١٦٦)

وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ  
تَخْدِمُهُمْ يَا أَبْتَا سَخْرِهِ

بعد سؤل أولاده يفصل ما فعلته به زوجته و يقول: (المصدر نفسه، ١٦٧)

و يَوْمَ زَارَتْ أُمَّهُمْ أَخْتَهَا  
وَالْأَخْتِ فِي الْغَيْرِ كَالضَّرِّهِ

قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النَّسَا  
كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا غَرِّهِ

قَوْمِي اطْلُبِي حَقَّكَ مِنْهُ بَلَا  
تَخْلَفِي مِنْكَ وَ لَا فَتْرِهِ

و إن تآبى فخذى ذقنه  
ثم انتفها شـعره شـعره  
قالت لها ما عادتى هكذا  
فإن زوجى عنده ضجرة

## ٢. النقد السياسى:

إن فساد الحكام و الولاة و القادة و الوزراء و حيلهم الواسعة ظلت لوقتٍ طويلٍ مورداً غزيراً لنقدهم عند الشعراء فى هذا العصر، فانتقادهم و هجاءهم للملوك و الأمراء و العمال الفاسدين، هو ما جعل بشعرهم من مظاهر المقاومة الشعبية و التمرد على الجور و المفاسد. الإجتماعية و من هنا أتت أهمية شعرهم و تفرده فى الشعر العربى. (محمد، ١٩٩٣: ١٢٥)

### أ- نقد الملوك:

ومن قبيل النقد السياسى نقد الملوك الصغار الذين يقعدون الحكم وهم دون سن الرشد، فيتولى عنهم السلطة رجال آخرون، مما يؤدي إلى انتشار الفوضى و الفساد (الأيوبي، ١٤١٥: ٢٥١) وقد أتى الجزار على ذلك بحديثه عن الملك الأشرف<sup>١</sup> الذى كان طفلاً صغيراً على الحكم فلم يستطع تدبير البلاد، يقول فيه: (ابن ظهيرة، ١٩٦٩: ٤٤)

والملك الأشرف كان طفلاً  
فلم يدبر عقدها والحلا

وقد نظم ابن الوردي أبياتاً حين تسلطن الملك كجك<sup>٢</sup> وكان صغيراً حيث قال فيه: (ابن الوردي، ١٤٠٧: ٢٢٢)

سلطاننا اليوم طفل والأكابُر في  
خلفٍ وبينهم الشيطان قد نزعاً

فكيف يطمع من مسته مظلمة  
أن يبلى السؤل والسُلطان ما بلغاً

السلطان طفل، وهناك من يتسابق على الحكم عوضاً عنه، و الشيطان نازع بينهم، كل ذلك يؤدي إلى تدهور الأمور و البلاد و أين الشعب من كل ذلك؟ الشعب فى حالة ضياع و ظلم، فكيف يستطيع من مسته مظلمة من هذا الشعب أن يشكو أمره و أن يبلغ سؤله و سلطانه لم يبلغ بعد؟

### ب- نقد صاحب الشرطة:

من المفترض أن يقوم صاحب الشرطة على توفير الأمن للمواطنين، و أملاكهم و أن يعمل على ملاحقة اللصوص، و محاسبتهم وفق القانون و لكن الشعراء رأوا أوضاعاً غير ذلك فى حياتهم و قاموا بنقدهم. قال البوصيري قصيدةً فى مدح صاحب شمس الدين عيسى بن برهان الدين السنجاري و كان نائباً فى الوزارة، و فى أثناء مدحه عرض له شكوى صديق له، دهم اللصوص منزله، فسرقوا ثيابه، و سجنوه فى بيته. و لما رفع دعوى إلى صاحب الشرطة لم يأبه لشكواه، و كأنه يشكو له الفرنسيس حاكم الفرنجة لا بل كأنه قاضٍ يقول للشاكي: لافائدة من شكواه و لاجدوى؛ فخصمه مفلس. ثم يأتي إليه أصحاب الأراضي يطلبون الربيع، و المال الذى سرقوه فيجن.

قال: (البوصيري، ٢٠٠٧: ١٧٢)

لي صاحب سرق اللصوص ثيابه  
ليلاً فبات بيته محبوساً

و شكاً لوالى الحرب سارق بيته  
فكأنما يشكو له افرنسيساً

<sup>١</sup> هو الأشرف بن الناصر يوسف بن محمد، ولى السلطة بعد شجرة الدر و خلع فى نفس سنة توليه أى سنة ٦٤٨ هـ. (ابن ظهيرة، ١٩٦٩: ٤٤)  
<sup>٢</sup> هو الأشرف علاء الدين كعب بن الناصر بن محمد بن قلاوون، تسلطن الملك سنة ٧٤٢ هـ. ثم خلع من عامه وولى أخوه أحمد و لقب بالناصر. (ابن ظهيرة، ١٩٦٩: ٤٤)

وكأنه قاضي يقول لخصمه: هذا غريمك أثبتت التقليل  
ويحججه أصحاب ريع عنده ويؤق دموه فيظهر التعيب  
ولرئما التمسوه بالمال الذي سرقوا فأصبح لأمسأ ملموسا

سمى البوصيري صاحب الشرطة (والي الحرب).

### ج- نقد الموظفين:

لما كان هناك من السلاطين والملوك في العصر المملوكي من هم فاسدون وظالمون، فمن الطبيعي أن يسري السوء إلى بقية موظفي الدولة، ينتشر بينهم، ويصبح وجودهم لا يحقق غايته. كيف لا... والسلطان منصرف عن متابعة وتفتيشه ومراجعته، والقيم على أعماله هو المستخدم الذي أصبح بمثابة الرئيس الفعلي في تأدية أمور الحكم، والمتصرف الأول فيما يعرض عليه رئيسه، الأمر الذي أدى إلى الاضطراب والفساد. (سليم، ١٩٩٢: ٢٤٥/٧)

«وطبيعي إن يتفشى هذا الشره، وتسرى عداوة من الكبير إلى الصغير، فيصبح كل من ولي أمرا من أمور الناس، وقد أعمل يده في السلب والنهب مستغلاً منصبه، محتمياً به، لا يردعه خلق، ولا ترفعه همة.» (أمين، ٢٠٠٣: ١٣٥)

بناءً على ما تقدم، من المؤكد أن القيم ستتهار، والأخلاق والدين سيختفيان ليحل محلها الاستبداد والظلم وأكل الأخ لحم أخيه بلارادع أو مانع. يقول ابن دقيق العيد في هؤلاء الناس: (الصفدي، ١٩٨٠: ٢٠٤/٤)

فإن تخالط منهم معشراً هويت في الدين على الراس  
يأكل بعضهم لحم بعض ولا يحسب في الغيبة من باس  
لاورع في الدين يحمهم عنها ولا حشمة جلاس  
لايعدم الآتي إلى بابهم من ذلة الكلب سوى الخاس

صورت قائمة مريرة لهؤلاء الناس، يخطها ابن دقيق العيد ساخراً من قلة ورعهم وانعدام أخلاقهم مفضلاً البعد عنهم لأن من يخالط معشراً منهم يهو في دينه على الرأس. ولعل أكثر الشعراء انتقاداً لموظفي الدولة ومستخدميها هو البوصيري الذي نظم قصيدة فضح فيها موظفي الدواوين وغيرهم. منها قوله: (البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٥٠)

أمولانا الوزير غفلت عما يههم من كلاب الخائنين

يصيب البوصيري بسهم هجائه وسخريته أمرين: الأول غفلة الوزير عن موظفيه، والثاني لؤم الكاتبيين وأفعالهم، فالشاعر هنا ينتقد سكوت الوزير عن هؤلاء اللئام الكاتبيين، ويسخر من غفلته و عدم ضربه على أيديهم (سليم، ١٩٩٢: ٢٣٧/٧) ومن انتقاده لموظفي الدولة قوله: (البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٥٠)

تكلبت طوائف المسخدمينا فلم أر فيهم رجلاً أميناً

فَقَدْ أَخْبَارَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَاهَاً وَأَنْظِرْنِي لِأَخْبِرَكَ الْيَقِينَا  
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عَمْرِي سِنِينَا

عمل البوصيري في الدواوين، ومعاشرته للمستخدمين سنياً طويلة، جعلته يحفظهم عن ظهر قلب، لذلك فهو خير من يتحدث عنهم ويخبر أخبارهم، فيقول بلسان الواثق أن لا أمين فيهم على الإطلاق لذلك يرى ألا يوثق بهم، ويواصل هجومه عليهم منقاداً أفعالهم.

### ٣- النقد الديني:

#### أ- نقد القضاة والفقهاء المسلمين:

لعب القضاة والفقهاء المسلمين في العصر المملوكي دوراً مهماً في الحياة المجتمع الإسلامي و خاصة أن السلطة كانت منقسمة إلى قسمين: قسم دنيوي يسيطر عليه السلاطين المماليك وقسم ديني يسيطر عليه علماء الدين الإسلامي من: قضاة و فقهاء، أئمة وغيرهم. (سلام، بلا تاريخ: ٦٥/١) وكانت مكانة قاضي القضاة تلي مكانة الخليفة العباسي وقد جعل الظاهر بيبرس القضاة أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة. ولكنه أبقى كبيرهم شافعيًا كما تولى بعض القضاة إلى جانب وظيفة القضاء، مناسب إدارية مهمة كالوزارة والنظر في الدواوين. (ابن العماد الحنبلي، ١٣٩٩: ٣٢٠/٥)

وكان لعلماء الدين من فقهاء و أئمة مساجد، وخطباء، وتقدير واحترام واضحان في المجتمع الإسلامي وقد خشيم السلاطين المماليك. وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت من بعض علماء الدين الإسلامي ممارسات جعلتهم محط انتقاد الشعراء ففضحوا ممارستهم وحرّضوا السلاطين عليهم لتغييرهم، قال البوصيري في بعض القضاة والفقهاء: (البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٦٨)

تَحَيَّيْتُ الْقَضَاةَ فَخَانَ كُلُّ وَكَمَ جَعَلَ الْفَقِيهَ الْعَدْلَ ظَلْمًا  
أَمَانَتُهُ وَسَمُوهُ الْأَمِينَا وَصَايِرٌ بِاطْلَاقًا حَقًّا مُبِينَا  
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَحْوَالِ مَصْرِ سِيَّوَى مَنْ مَعَشَرَ يَتَأَوَّلُونَا

يتهم البوصيري القضاة والفقهاء صراحةً؛ فالقضاة المفترض أنهم أمناء على الرعية، أصبحوا يخونونها، والفقهاء المفترض يحافظون على إقامة العدل وإشاعته بين الناس، أصبحوا مفسدين، ويحولون الحق باطلاً فهم يؤدون كل شيء وفق أهوائهم ومصالحهم.

### ب- نقد المتصوفة:

ازدهرت حركة التصوف في الدول المملوكية، والحقيقة أن المماليك قد روجوا لهذا التيار واحتفوا به، فأسسوا لهم المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف، ولكن لم يكن في زهاده منهم في شيء وإنما هو صرف للناس عن الدنيا ليستأثروا بها وحدهم. (أمين، ٢٠٠٣: ١٦٤)

ومن الشعراء من اتهم المتصوفة بالكفر والزندقة ورماهم بالبطالة والفساد والكسل ومنهم من رماههم بسهامه فأوسعهم سباً وسخرية. (المصدر نفسه، ١٥) ومنهم ابن المعمر الذي قد اشتد في مهاجمة المتصوفة الذين كان المفترض بهم استقبال المحتاجين في خانقاتهم ولكن بعضهم لن يفعل ذلك، فكانوا يأوون من يروق لهم (محمد، ١٩٩٣: ١٣٤) فيقول: (ابن المعمر، بلا تاريخ: ق ١٠)

قَدْ صَارَ فِي الْخَانِقَاهُ عُرْفٌ مِنْ فَعْلِهِمْ وَهُوَ شَرُّ عَارَةٍ

لا يدفعون النَّصيبَ فيها  
إلا لمن تترك الشَّهادة

وفي مثل هذا القول يصفهم البهاء الزهير بقوله: (البهاء، ١٩٧٧: ٢٣٨)

كَمْ أَنْاسٍ أَظْهَرُوا الزُّهْدَ لَنَا  
فَتَجَافَوْا عَنِ حِلَالٍ وَحَرَامٍ

قَلَّوْا الْأَكْلَ وَأَبَدُوا وَرِعَاءَ  
وَاجْتَهَاداً فِي صِيَامٍ وَقِيَامٍ

ثُمَّ لَمَّا امْتَكَنَتْهُمْ فُرْصَةٌ  
أَكَلُوا أَكْلَ الْحَزَانِيِّ فِي الظُّلَامِ

هنا يفضح البهاء زهير حقيقة هذه الفئة من الزهاد المتصوفة فيبين أن علينا أن لا نغترّ بظاهر أعمالهم من الاجتهاد في الصيام والقيام لأنهم ما أن يختفوا عن أنظار العامة فإنهم يأكلون أكلَ لحزاني في الظلام، أي يأكلون بشراسة.

### ج- نقد أهل الذمة:

ساد جوٌّ من توتر العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة طوال العصر المملوكي، ومن العوامل التي ساعدت على خلق هذا التوتر الحروب الصليبية وما ارتكبت من أهوال جعلت مشاعر المسلمين تفيض بالمرارة وبالتالي خلقت رد فعلٍ عنيفٍ تجاه أهل الذمة في بلادهم. من هنا جاء دور الشعراء الذين هبوا بأشعارهم يهجون للأقباط هجاءً لاذعاً، وخير مثال على هؤلاء الشعراء البوصيري الذي كان شعره تعبيراً عن مشاعره ومشاعر المسلمين نحو أهل الذمة و حيث يقول في قصيدة له: (البوصيري، ٢٠٠٧: ١٥٢)

إِنَّ النَّصَارَى بِالْمَحَاطَةِ وَدُهُمِ  
لَوْ كَانَ جَامِعُهَا يَكُونُ كَنِيْسَا

أَثْرَى النَّصَارَى يَحْكُمُونَ بِأَيْمِهِ  
مَنْ بِأَشْرَ الْأَحْبَاسِ صَارَ حَبِيْبَا

حيث يبين لولي الأمر وحاكم البلاد خبث النصارى ويعكس ماهية تفكيرهم ومدى كرههم للإسلام فهم يتمنون أن تتحول المساجد في المحلة (مدينة مشهورة بالديار المصرية) إلى كنائس.

و بعد هذا التوضيح يرجو الشاعر من ولي الأمر بصرفهم وعدم استخدامهم بقوله: (المصدر نفسه، ١٥٢)

صَزَفَ الْإِلَهَ السُّوءَ عَنكَ بِصَرْفِهِ  
فَاصْرِفْهُ عَنَّا وَاصْفَعْ الْقَسِيْسَا

أَفْدِي بِهِ الْمُسْتَحْدَمِينَ وَإِنَّمَا  
أَفْدِي بِتَيْسِ كَالْيَهُودِ ثِيُوسَا

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ أَمْرَهُمْ مِنْ غَيْرَتِي  
لَمْ أَبْقِ لِلْمُسْتَحْدَمِينَ ضُرُوسَا

لم يكن البوصيري الشاعر الوحيد الذي ضاق باستخدام أهل الذمة، فالعطار يهجو المستخدمين ويسخر من استخدامهم بقوله:

(العصقلاني، ١٩٩٧: ٢٧٠/١)

قَالُوا نَرَى الْأَقْبَاطَ قَدْ رَزِقُوا  
حَظًّا وَأَضْعَوْا كَالسَّلَاطِينِ

وَعَلُّوا الْأُمُورَ أَلْوَالًا قُلْتُمْ لَهُمْ

رِزْقُ الْكِلَابِ عَلَى الْمَجَانِينِ

## الخاتمة و النتائج:

- ١- تمكّن شعراء العصر المملوكي - إلى حد كبير- من نقل صورة واضحة لحياة المجتمع الإسلامي في هذا العصر و هذه الصورة ما كان يمكنهم رسمها وتوضيحها لو لم يكونوا ملتزمين بقضايا المجتمع وجريئاً في تناولها. الأسباب التي دفعت الشعراء إلى شعر النقد الاجتماعي وكثيرة ومنها ما هو الأهم وهو المدفوع من البيئة الاجتماعية والسياسية ومنها ما كان لأغراض دينية عقائدية. كان شعر النقد الاجتماعي سلاح كثير من الشعراء في مقاومة الظلم والجور ويُعدّ مظهراً من مظاهر المقاومة الشعبية. اتخذ الشعراء شعر النقد الاجتماعي وسيلةً من وسائل الشكاية حيث كانوا يصوّرون من خلاله فقرهم وضيق حالهم وجعلوا من خلالها يلفتون الأنظار إلى حالهم وأوضاعهم الاجتماعية والمادية.
- ٢- قد جاء شعر النقد الاجتماعي في العصر المملوكي موزعاً على هذه المظاهر: أ- النقد الذاتي: فقد نقد الشعراء أنفسهم، أسرتههم و أزواجهم. ب- النقد السياسي: إذ نقد الشعراء الملوك، وأصحاب الشرطة والموظفين. ج- النقد الديني: حيث نقد الشعراء بعض القضاة والفقهاء والمتصوفة وأهل الذمة. وهذه هي أهم الموضوعات التي تطرّق إليها الشعراء في النقد الاجتماعي في العصر المملوكي.
- ٣- قام عدد كثير من شعراء العصر المملوكي بمسؤولية تجاه قضايا المجتمع وشعر النقد الاجتماعي في هذا العصر ومن أهم هؤلاء الشعراء يمكن الإشارة إلى البوصيري، ابن الوردي، الجزار، ابن دقيق العيد، ابن المعمار، البهاء زهير والطار. هذه هي أهم ما توصلنا إليه من شواهد الشعر الاجتماعي ولانثك في أن هناك آثاراً شعرية أخرى أقوى دلالة وأعمق تأثيراً لم نوفق الى مطالعتها.

## المصادر والمراجع:

١. ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دارالكتب المصرية، (د.ط)، القاهرة، ١٩٦٩ م.
٢. ابن العماد الحنبلي، عبدالحى (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٨)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ٢ منقحة، دارالميسرة، بيروت ١٣٩٩ / ١٩٧٩.
٣. ابن الوردي، زين العابدين عمر بن مظفر، ديوان ابن الوردي، حقّقه وعلّق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، دارالقلم، الكويت، ١٤٧٠ هـ / ١٩٨٧ م.
٤. أمين، بكرى شيخ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ط ٢، دارالآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٩ / ١٩٧٩.
٥. أمين، فوزي محمد، أدب العصر المملوكي الأول ملامح المجتمع المصري، دارالمعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية، ٢٠٠٣.
٦. الأيوبي، ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط ١، جروس برس، طرابلس، ١٤١٥ / ١٩٩٥.
٧. بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط ٢، دارنهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩.
٨. بهاء الدين، زهير (ت ٦٥٦ هـ)، الديوان، تحقيق محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، دارالمعارف، مصر، ١٩٧٧.
٩. البوصيري، محمد بن سعيد (ت ٦٩٦ / ١٢٩٦)، الديوان، المقدمة، تحقيق سيد كيلاني، ط ٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٣ / ١٩٨٧ م.
١٠. —، —، تحقيق عبدالرحمن مصطاوي، دارالمعارف، بيروت، ٢٠٠٧ م.
١١. الحموي، ابن الحجة، تقي الدين أبوبكر علي (ت ٨٣٧ هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، مكتبة لبنان، (د.ط)، بيروت (د.ت).
١٢. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، الشعر والشعراء، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

١٣. سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، مكتبة الآداب، ط ٢، (د.م)، ١٩٩٢م.
١٤. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤ هـ)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق مجموعة دار فراتر بغسبادان، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت، ١٩٨٠.
١٥. ضيف، شوقي، **في النقد الأدبي**، ط ٢، دارالمعارف، مصر، دون تاريخ.
١٦. العسقلاني، ابن حجر أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، ضبط وتصحيح عبدالوارث محمد علي، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
١٧. الفقي، محمد كامل، **الأدب في العصر المملوكي**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.
١٨. محمد، محمود سالم، **أدب الصناعات وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣.
١٩. المعمار، إبراهيم (٧٤٩ هـ)، **الديوان**، إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية، رقم 1118.
٢٠. الهيب، أحمد فوزي، **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦ / ١٩٨٦.
٢١. يوسف، خالد، **الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان**، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٣.